باســـم الله الرحمن الرحيم.

الحكمة في تشريع التعدد

أرسـل سـبحانه وتعـالى رسـوله الكـريم بالهـدى والحـق، ليَخـرهم مـن الظلـمات الى النـور، دينـاً طيبـاً يسـيراً مُيسّـراً، يُيَسّرـ لهـم سُـبل السـعادة في الـدنيا والآخـرة، ويصرـف عـنهم أسـباب الشـقاء في الـدارين، يُعطـي لكـل ذي حـقٍ حقـه، ويضـع المـوازبن بالقسـط، ويُوجب العدل، ويُحرم الظلم والطغيان.

الَّـذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الْأُمِّـيَّ الَّـذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًـا عِنْـدَهُمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَـنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُـمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَـيْهِمُ الْخَبَائِـثَ وَيَضَـعُ عَـنْهُمْ إِصْرَهُـمْ وَالْأَغْـلَالَ الَّتِـي كَانَـتْ عَلَـيْهِمْ فَالَّـذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

وكـذلك كـل شرعٍ أمـر بـه سـبحانه وتعـالى إمـا أن يكـون خبيثـاً مُضرـاً ينهـى عنـه تعـالى، وإمـا طيبـاً نافعـاً يـأمر بـه ويُحلِّـه... ومـا كـان سـبحانه ليـأمر عبـاده بـأمره يضرـهم أو ينهى عنهم ما ينفعهم.

قُـلْ مَـنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللَّـهِ الَّتِـي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِـنَ الـرِّزْقِ ۚ قُـلْ هِـيَ لِلَّـذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

قبـل الحـديث عـن الحكمـة مـن تشرـيع التعـدد في الإسـلام، فللنظـر الى حـال النسـاء قبل طلوع فجر الإسلام وإرسائه العدل والحق في الأرض..

كانـت ذات مكانـة منحطـة، محرومـة مـن أبسـط حقوقهـا، حُرمـت مـن العـيش الطيـب، وَجُعلت سلعة يُتاجر بها:

1. كان العرب في الجاهلية ينظرون إلى المرأة على أنها متاع من الأمتعة التي يمتلكونها مثل الأموال والبهائم، ويتصرفون فيها كيف شاؤوا .
2. كان العرب لا يُوَرثون المرأة، ويرون أن ليس لها حق في الإرث، بل كانت تصير هي إرثا، كان العرب إذا مات الرجل وله زوجة أصبحت إرثا كباقي أمواله. وتزوجها قهرا من له الحق في الإرث. وقد كانت العدَّة للمرأة (أي المدة التي لا يحق لها أن تتزوج فيها بعد موت زوجها) سنة كاملة، وكانت المرأة تحد على زوجها شر حداد وأقبحه،

فتلبس أقبح ملابسها، وتسكن أقبح الغرف، وتترك الزينة والتطيب والطهارة، فلا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً ولا تبدو للناس في مجتمعهم.

3. كذلك كان العرب يَكرهُونَ البنات فاذا وَلد أحدهم أنثى دفنها تحت التراب حية خشية العار كما يزعمون.

وليس هذا عند العرب فقط:

فعند الاغريق كانت المرأة حقيرة مَهينة، حتى إنَّهم ليعدونها رجساً من عمل الشيطان، وكانت تباع وتشترى في الأسواق .

وعند الرومان كانت تُعذب بسكب الزيت الحار على بدنها، وربطها بالأعمدة، بل كانوا يربطون البريئات بذيول الخيول، ويسرعون بها إلى أقصى سرعة حتى تموت.

وعند الصينيين كان للرجل الحق في بيع زوجته واذا مات زوجها صار لأهله الحق فيها أي أنها تصير ارثا، بل وللزوج الحق في دفن زوجته حية إن هو شاء.

وعند الهنود لم يكن للمرأة الحق في الحياة بعد موت زوجها، بل كانت تُحرق وهي حية الى جانب زوجها. وكانت تُقدّم قربانا للآلهة.

وعند الفُرس، أُبيح الزواج بالأمهات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وكانت تُنفى الأنثى في فترة الطمث إلى مكان بعيد خارج المدينة، وكانت المرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة، يحق له أن يحكم عليها بالموت، أو ينعم عليها بالحياة.

وعند اليهود كان يُنظر إليها على أنَّها في مرتبة الخدمة، ولأبيها الحق في بيعها، واعتبروها لعنة؛ لأنَّها سبب خروج آدم من الجنة عندما أغوته بزعمهم .

وعند النصارى، كانت المرأة تُباع وتُشترى، بل لم تكن تعتبر كائنا حياً، يقول أحد رجال الكنيسة (بونافتور) الملقب بالقديس: (إذا رأيتم امرأة، فلا تحسبوا أنَّكم ترون كائناً بشرياً، بل ولا كائناً وحشياً، وإنَّما الذي ترون هو الشيطان بذاته، والذي تسمعون به هو صغير الثعبان).

وما هذه الا صورةٌ يسيرة مما كانت تعيشه من ظلم وجور وعدوانٍ..

ثــم جــاء الإســلام.. جــاء النــور والهــدى، جــاء العــدل والحــق.. ليَعطــي المــرأة حقهــا، ويضــمن لهــا حيــاةً طيبــة، ويرفــع عنهــا أغــلال الجاهليــة، ويجعلهــا عزيــزة كريمــة في أهلها ومُجتمعها.

فــالمرأة شريكــة الرجــل في الخَلــق والعلاقــة بيــنهما لا تكــون في نظــر الإســلام الا مــودةً ورحمــة، وَمِــنْ آيَاتِــهِ أَنْ خَلَــقَ لَكُــمْ مِــنْ أَنْفُسِــكُمْ أَزْوَاجًــا لِتَسْــكُنُوا إِلَيْهَــا وَجَعَــلَ بَيــنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً..

فأكرمهــا أمّــاً، جــاء رجــلٌ إلى رســول اللــه- صــلى اللــه عليــه وســلم- فقــال : يــا رســول اللــه، من أحــقّ النــاس بحســن صحابتي؟ قــال: أمــك. قــال: ثُــمَّ مــن؟ قــال: أمــك. قــال: ثُــمَّ مــن؟ قال: أمك. قال: ثُمَّ من؟ قال: أبوك.

وأكرمهــا أختــاً، قــال صــلى اللــه عليــه وســلم: بِــرّ أمــكَ وأبــاك، وأختــكَ وأخــاك، ثُــمَّ أدنــاك أدناك.

ولنتأملَ كيف قدمّ الأمّ على الأبِ، وكذا قدَّم الأختُ على الأخ!

وأكرمهــا بِنتــاً، قــال رســول اللــه- صــلى اللــه عليــه وســلم-: ((مــن عــال جــاريتين حتــى تبلغا (أي أنفق علــيهما) جــاءَ يــومَ القيامــة أنــا وهــو)) ــ وضــم أصــابعه ــ أي : كــان رفيقــا لرسول الله يوم القيامة.

وأكرمهــا زوجــة، قــال تعــالى: ((وَلَهُــنَّ مِثْــلُ الَّــذِي عَلَــيْهِنَّ بِــالْمَعْرُوفِ))، وقــال -صــلى اللــه عليــه وســلم-: ((استوصــوا بالنســاء خــيرا))، وأعطــى لهــا الحــق في الــدفاع عــن نفســها (وَإِنْ خِفْــتُمْ شِــقَاقَ بَيْــنِهِمَا فَــابْعَثُوا حَكَــماً مِــنْ أَهْلِــهِ وَحَكَــماً مِــنْ أَهْلِهَــا إِنْ يُرِيــدَا إِصْلاحــاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

وجعــل عقــاب مــن آذاهــا ولــو بكلمــة ســوء يقــذف بهــا شرفهــا ثمــانين جلــدة، وَالَّــذِينَ يَرْمُــونَ الْمُحْصَــنَاتِ ثُــمَّ لَــمْ يَــأْتُوا بِأَرْبَعَــةِ شُــهَدَاءَ فَاجْلِــدُوهُمْ ثَمَــانِينَ جَلْــدَةً وَلا تَقْبَلُــوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

وجعــل الإســلام لهــا في زواجهــا حقوقــا لا حصرــ لهــا، فهــي حُــرةٌ في اختيــار زوجهــا ، ولــيس لأبيهــا أن يُكرههــا عــلى مــا لا تريــد، وأوجــب عــلى مــن يريــد أن يتزوجهــا أن يُعطيهــا صــداقها، وأوجــب عــلى زوجهــا الانفــاق عليهــا، وضــمان مســكن لهــا، وتــوفير

ملبسها وحاجياتها، وأوجب عليه تَعليمها أمور دينها، وصيانتها وحمايتها من كل شر، وأن يتجاوز عن عثراتها وزلاتها، ويُعاشرها بالمعروف والإحسان..

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة..

أما فيما يخص تشريع التعدد، فلفهم الحكمة منه ومقاصده فلننظر الى حال الأمم السابقة، إن بعض الأمم كاليهود والعرب كان الرجل منهم يتزوج العشرة والعشرين وأزيد.. ثم جاء الإسلام بالنور والخير ليصون هذه الأسرة التي جعلها نواة المجتمع وأساس صلاحه.

ولنعلم أولاً أن الإسلام لم يُشرع تعدد الزوجات على نحو الإيجاب والفرض، يعني أن الإسلام لم يفرض التعدد بل جعل له حدوداً، فجعل لتلك العادة التي عهدتها المجتمعات السابقة شروطاً وضوابط تحفظ مصلحة المجتمع والأسرة والمرأة.

فنهى الرجلَ عن الزواج بأكثر من أربع نساء، بل ونهاه عن الزيادة عن الواحدة إن عجز عن إقامة العدل بينهن وضمان حقوقهن بالتساوي.. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً، وهذا لا يتيسر إلاَّ لقليل من الرجال.

أما بذكر الحكمة من التعدد فلنتأمل هذه الاحصائيات:

في آخر الإحصاءات الرسمية لتعداد السكان بالولايات المتحدة الأمريكية تبين أن عدد الإناث يزيد على عدد الرجال بأكثر من ثمانية ملايين امرأة .. وفى بريطانيا تبلغ الزيادة خمسة ملايين امرأة ، وفى ألمانيا نسبة النساء إلى الرجال هي ثلاث أرباع، وفى إحصائية نشرتها جريدة ((الميدان)) المصرية أكدت الأرقام أنه من بين كل عشر فتيات مصريات في سن الزواج تتزوج واحدة فقط. وقالت الصحيفة : إن العلاقات المحرمة تزيد ، وكذلك ظاهرة الزواج العرفي في ظل وجود ملايين من النساء بلا زواج .. وأكدت أيضا تراجع حالات الزواج بين الشباب بنسبة 90 % بسبب الغلاء والبطالة وأزمة المساكن.

والتعدد يُسهم في زواج كثير من النساء، ومعلومٌ بالنقل والعقل، و لاسيما في زماننا هذا، حيث صار النساء بأعداد كثيرة مقارنة بالرجال وهي من أشراط الساعة التي أخبر بها النبي "وَيَكْثُرَ النِّسَاءَ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِد" فكيف لتلك النساء أن يحضين بالزوج والأمان ..؟

كيف يُصان عِرضهن من الفاحشة التي صارت تُمارس علناً، تقول إحصائية رسمية أمريكية : إنه يولد سنويا في مدينة نيويورك طفل غير شرعي من كل ستة أطفال.

بل كيف تُصان صحتها، يقول الدكتور محمد هلال الرفاعى أخصائي أمراض النساء والتوليد :عدم الزواج أو تأخيره يعرض المرأة لأمراض الثدي أكثر من المتزوجة ، وكذلك سرطان الرحم والأورام الليفية. وتقول طبيبة في رسالة بعثت بها إلى الكاتب الكبير أحمد بهجت: هل يستطيع أحد أن يتخيل حجم المأساة التي يواجهها عالم (النساء الوحيدات) ؟ إن نساء هذا العالم لا يستطعن إقامة علاقات متوازنة مع الآخرين ، بل يعشن في حالة من التوتر والقلق والرغبة في الانزواء بعيدا عن مصادر العيون و الألسنة والاتهامات المسبقة بمحاولات خطف الأزواج من الصديقات أو القريبات أو الجارات .. وهذا كله يقود إلى مرض الاكتئاب ، ورفض الحياة ، وعدم القدرة على التكيف مع نسيج المجتمع .

والأخذ بنظام تعدد الزوجات جنَّب المجتمعات الإسلامي شرورا ومصائب لا حصر لها .. وتكفى مقارنة بسيطة بين المجتمع المسلم وبين المجتمع الأمريكي الذي تكاد نسبة العشيقات فيه تزيد على نسبة الزوجات .. كما تبلغ نسبة الأطفال غير الشرعيين فيه أكثر من 45 % من نسبة المواليد سنويا !! وتقول الإحصاءات الرسمية الأمريكية إن عدد الأطفال غير الشرعيين كان 88 ألف مولود سنة 1938 ، ثم ارتفع إلى 202 ألف عام 1957 ، ووصل إلى ربع مليون مولود من الزنا عام 1958 .. ثم قفز الرقم إلى الملايين من ثمرات الزنا في التسعينيات !! في أمريكا وحدها يقتل بالإجهاض أكثر من مليون طفل سنويا، في الولايات المتّحدة الأمريكية حالياً، أكثر من 65 مليون شخص مصابون بأمراض جنسية لا يمكن علاجها! وهناك أيضا 15 مليون إصابة جديدة سنوياً. في أمريكا 10.4 مليون أسرة تعيلها الأم فقط (دون وجود أب).

وفي أمريكا يُمارس نوع آخر من التعدد، تذكر الأبحاث أن 30 الى 60 % من المتزوجين تربطهم علاقة بغير أزواجهم، فلا عجب أن نصف الزيجات ينتهي بالطلاق..

في أمريكا تبلغ نسبة الشذوذ الجنسي 25 ملايين، مما يعني أن نسبة كبيرة من "الرجال" ان صدق وصفهم بالرجولة ليسوا في خانة الصالحين للزواج، وهذا يوسع دائرة العنوسة عند النساء.. فكيف لهم أن يجدوا زوجا في مجتمعٍ أغلبية أهله إما شذوذ أو خائنون أو لا يهتمون بالزواج أصلا..

الحصيلة، ارتفاع معدلات الاغتصاب، التي تفوق 200 ألف سنوياً، بما يعادل حالة اغتصاب كل دقيقتين.. ولكم أن تتخيلوا كم امرأة تم اغتصابها منذ أن بدأت هذه الحصة..

تهدم الأسرة، وتشتت الروابط الأسرية، ضياع الحقوق، تفشي الظلم والفاحشة، انتشار الأمراض والأوباء، لم كل هذا؟

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً..

فهل نتبع أمر ربنا ونحفظ أمتنا من هذه الشرور والمصائب، أم نتبع الغرب فنسير الى ما صاروا اليه فنذل ونخزى..

قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّه نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِه وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.